

السيمياء والتواصل الاجتماعي

أ.م.د. خلود جبار
جامعة بغداد - كلية الاعلام

المقدمة

إنّ الدوال تتواصل عبر اللغة والعلامة والنسق والإشارة وإنّ الأشياء في عالمنا تحمل دلالة ووظيفة , وهذه الوظيفة قد تكون مقصدية أو لا تكون , ذات ميزة فردية أو جماعية , وذات طبيعة مادية أو معنوية , وهذه الدوال التواصلية قد تكون لفظية أو غير لفظية , تعبر عن وعي أو عن غير وعي .

التواصل اليوم عبارة عن تقنية إجرائية في فهم التفاعلات الانسانية وتفسير النصوص والخبرات الاعلامية , والتحكم في طرائق الإرسال والتبادل .

وتكون اللغة من أهم آليات التواصل ومن أهم تقنيات التبليغ ونقل الخبرات والمعارف من المرسل الى المخاطب , وهي _ اللغة _ على مستوى التخاطب والتواصل ذات مستويين سلوكيين : لفظي وغير لفظي .

إنّ مفهوم التواصل في العربية يفيد الاقتران والاتصال والصلة والترابط والإبلاغ والإعلام. والتواصل في الاصطلاح يدل على عملية نقل الأفكار والتجارب وتبادل المعارف والمشاعر بين الذوات والافراد والجماعات , وقد ينبنى التواصل على الموافقة أو على المعارضة والاختلاف . إنّ التواصل _ اليوم _ يتضمن كل رموز الذهن مع وسائل تبليغها وتعزيزها , فضلا عن تعابير الوجه وهيئات الجسم والحركات ونبرة الصوت والكلمات والكتابات وجميع وسائل الاتصال المقروءة والمنظورة والمسموعة والملموسة , وكل ما يشمله مكتشفات المكان والزمان , لأنّ التواصل هو جواهر العلاقات الانسانية ومحقق تطورها , عن طريق وظيفته المعرفية في نقل الرموز وتبليغها بالوسائل اللغوية وغير اللغوية ووظيفته الوجدانية التأثيرية التي تقوم على تمتين العلاقات الانسانية وتفعيلها .

السيمياء :

السومةُ والسيمةُ والسيمياء والسيمياء في معاجم اللغة هي العلامة . والاشارة والرمز الدال على معنى مقصود^(١) .

والخيل المسومة وهي التي عليها سمة . وقد وردت في القران الكريم بالقصر في قوله تعالى ((سيماهم في وجوههم من أثر السجود)) الفتح / ٢٩ , وكذلك وردت هذه المفردة بمعنى العلامة والتعرف في الدنيا والاخرة^(٢) .

, وقوله تعالى ((تعرفهم بسيماهم)) البقرة/٢٧٣ , دالة ومرتبطة بالتعرف على الانسان في الدنيا والاخرة.

وهي في الاصطلاح تقوم على دراسة العلامات والرموز والصور والمفاهيم والافكار وتُعنى بقوانين انتاج العلامة والعلاقة الرابطة بين العلامة والمفهوم وتخصيص اللفظ في دراسة علامات النص

وحياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية , فهي في حقيقتها كشف واستكشاف لعلاقات دلالية مرئية وغير مرئية عن طريق التجلي المباشر للواقعة , إنها تدريب للعين على التقاط الضمني والمتواري والتمتع , لا مجرد الاكتفاء بتسمية المناطق أو التعبير عن مكونات المتن^(١). فالسيميائية بهذا المفهوم أصبح علما يدرس حياة العلامات داخل المجتمع ودراسة السلوك الانساني بوصفه حالة ثقافية , لأن السلوك لا يمكن أن يكون دالا إلا اذا كان وراءه مقصدية وهدف ووظيفة.

وقد سُميت السيميائية بأسماء عديدة منها : علم الاشارات , والسميولوجيا , وعلم العلامات, وعلم الدلالة , وهذه التسميات تعني ذلك العلم الذي يهتم بدراسة حياة العلامات في كنف الحياة الاجتماعية , فهي تدرس العلامة اللغوية وغير اللغوية , وتدرس بنية الاشارات وعلائقها في الحياة وتوزيعها ووظائفها الداخلية والخارجية في مجالات العلوم الانسانية والصرفة , في ما تدرس اللسانيات العلامة اللغوية _ قال عنها سوسير ((اللغة نظام من العلامات التي تعبر عن الافكار)) _ فقط ولأتعنى بالعلامة غير اللغوية^(٢).

السيميائية عند العرب :

إن دراسة نظام العلامات في التراث العربي قديمة قدم الدرس اللساني إلا أن الافكار والتأملات السيميائية التي وصلت ظلت في اطار التجربة الذاتية , إذ بدأت عند الفارابي والحامتي وابن سينا وابن خلدون والغزالي والجرجاني والقرطاجني وغيرهم من الاعلام العلماء العرب , ولكنها لم تتجسد في اطار التجربة العلمية الموضوعية وتشعبها في المجالات المختلفة والتخصصات المتنوعة والثقافات المتعددة , لأنها تنطلق من شكل الاشياء في فهم الانسان بهدف الوصول الى وصف الوجود .

ولا يمكن أن ننكر اسهام العرب الاوائل في هذا المجال , ذلك أن المتصفح للكتب التراثية والآثار العلمية , يلمس عطاء المسلمين ومشاركتهم البناءة في السيميائية فقد عرفها متصوفة الاسلام باسم ((السيميائية)) أو ((علم أسرار الحروف)) وفي الاطار نفسه عالج اللغويون والمناطقية القدماء قضية الدلالة بعدها النسبة الرابطة بين اللفظ والمعنى أو بين الدال والمدلول بالاصطلاحات الحديثة.

وقد ميز المناطق العربية بين ثلاثة أنواع من النسب : طبيعية , وعقلية , ووضعية , فأما الدلالة الطبيعية فهي دلالة يجد العقل بين الدال والمدلول علاقة طبيعية ينتقل لأجلها منه إليه , وأما الدلالة العقلية فهي دلالة يجد العقل بين الدال والمدلول علاقة ذاتية ينتقل لأجلها منه إليه , وأما الدلالة الوضعية فهي دلالة يجد العقل بين الدال والمدلول علاقة الوضع ينتقل لأجلها منه إليه , أي أنها دلالة اصطلاحية قائمة على المواضعة والاتفاق^(٣).

وتأتي جهود العرب القدماء لتعطي دليلا على معرفتهم بهذا العلم , فهذا الجاحظ يقدم دليلا على عبقريته , إذ بين في تعريفه للبيان بأنه: ((اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى أي كل ما أوصل السامع الى المعنى المراد , يستوي في ذلك كل أجناس الأدلة , فبأي شيء بلغت الافهام ووضحت المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضوع))^(٤)

ووقف عند العلامات والإشارات التي تدل على المعنى وهي عنده : اللفظ والاشارة والعقد والخط والحال , وفصل في الاشارات الناقلة للمعاني وحدد المواقف التي تستدعي التعبير بالاشارة

كالرغبة في ستر بعض الأمور وإخفائها عن الحضور^(٧) وقد استدل العلماء العرب الأوائل بالعلامات والوسائل غير اللفظية نحو الاستدلال بالعين , والإشارة والنسبة وهي الحال الناطقة بغير لفظ , والمشيرة بغير يد في الاعتبار , وسُمح للسيميائية عندهم بأن تجعل لكل موقف الاشارات التي تخصه ما يقوم مقام اللفظ , ومن ذلك مواقف العشق والغرام والعلامات التي لهج بها الادباء والشعراء وتناولها الناس , فهذا ابن عبد ربه قال : ((وللمحب آيات اذا هي صرحت تبديت علامات لها غرر صفر فباطنه سقم وظاهره جوى وأوله ذكر وآخره فكر , ومن علاماته الاخرى . لجلجة اللسان والحصر والسعي والدموع))^(٨) وعرض ابن القيم لعلامات المحبة وشواهداها في روضة المحبين , في الصوت وإيقاع الكلام , وهذا ما ذكره أيضا الراغب الاصفهاني , إن نغمة الصوت تختلف تبعا لمقاصد الكلام وأغراضه , فالألفاظ رموز وعلامات للمعاني الدالة^(٩) .

وخصص ابن خلدون فصلا في مقدمته لعلم أسرار الحروف وهو ((المسمى بالسيميائية ونقل وصفه من الطلسمات إليه في اصطلاح أهل التصرف من غلاة المتصوفة ومن فروع السيميائية عندهم استخراج الأجوبة من الأسئلة بارتباط بين الكلمات حرفية يوهمون أنها أصل في المعرفة^(١٠) .

وقد ارتبط علم السيميائية بعلم الدلالة الذي كان يتناول اللفظة وأثرها النفسي وهو ما يسمى بالصورة الذهنية والأمر الخارجي عند المحدثين , وقد عمم العلماء العرب مجال أبحاث الدلالة على كل أصناف العلامات , ومن الواضح أنهم اعتمدوا اللفظية منها إيمونجا أساسيا في التعيين^(١١) . وفي توضيح نوعية دلالة العلامات المركبة وتحليل الدلالة المؤلفة من تسلسل عدة توابع دلالية مدخلا جديدا ذا منفعة قصوى للسيميائية المعاصرة .

أبعاد السيميائية :

حدّد شارل موريس أبعاد السيميائية بثلاثة أبعاد هي :
الدلالة : أي العلاقة بين الدوال والمدلولات .
التركيب : أي علاقات العلامات فيما بينها.
التداوليات : أي علاقات العلامات بمستعملها .

إنّ التحليل السيميائي يتأثر بدرجة كبيرة بشخصية من يقوم بالتحليل وبالظروف المحيطة به , ولذلك فإن التحليل السيميائي لنص معين قد يختلف من شخص الى آخر , ومن منطقة الى أخرى , ومن مدة زمنية لأخرى , وهو بذلك مجال خصب للابداع . فلا قيود عليه إلا أن تكون هناك دلائل في التحليل المقترح على صحة ما ذهب إليه من قام بعملية التحليل .

المنهج السيميائي وعناصره :

يرى بعض الباحثين أن عناصر المنهج السيميائي هي :

العنصر البنيوي اللغوي : وهو الذي يرتبط ببنية النص ولغته .

العنصر الفني الجمالي : وهو الذي يرتبط بما يحتوي عليه النص من ابداع فني في تكوين الشكل .

العنصر النفعي الدلالي : وهو الذي يرتبط بالمؤلف وبيئته والتناص مع النصوص الأخرى .

إنّ المنهج السيميائي قائم على الإحاطة بالمادة التجريبية (النص) من نواحي عدة كاللغة والصوت واللون والشكل وكل ما كان علامة لمعنى وحتى تصل الى استخلاص جيد لمحتوى النص , إنه المنهج

الذي يحلل النص من خلال خصائصه ويربطه بالأنظمة السيميائية خارج النص كالمحيط الذي نشأ من خلاله , ويتسع ليشمل الثقافة البشرية أو يضيف ليشمل حيز الذات البشرية , إنَّه المنهج الذي لا يركن الى تحليل النص بلغته الظاهرة , بل يركن الى التحليل العميق للنص ويتجاوز ذلك بتفسيره للمعنى الذي خلف اللغة من خلال دلالة العلامات التي يحتويها النص كاللون والحركة والإيقاع والصوت والشكل , إنَّه منهج لا ينظر الى النص نظرة جافة , ولا يعتمد على انطباعية القراءة , وإنما يعتمد على إيجاد الأدلة على المعاني .

موضوعات السيمياء :

إنَّ موضوع السيمياء فيما يخص العلامات ودراسة حياة العلامة في كنف المجتمع , وإنَّ دراسة الانظمة الشفوية وغير الشفوية , ومن ضمنها اللغات بما هي أنظمة أو علامات تتمفصل داخل تركيب الاختلافات , إذ تهتم بالعلامة من حيث كُنْهها وطبيعتها , وتسعى الى الكشف عن القوانين المادية والنفسية التي تحكمها , وتتيح إمكانية تفصلها داخل التركيب⁽¹¹⁾ . تهتم السيمياء بدراسة الانساق الدلالية , أي مجموع العلامات التي تنسج منها فيما بينها شبكة من العلاقات الاختلافية والتعارضية حتى تضطلع بتأدية وظائف دلالية متميزة بين مرسل ومتلق وهذه الانساق :

_ أنساق دلالية طبيعية وهي التي توجد في الطبيعة وتتسم بكونها غير مؤسسية إلا أنَّ الانسان وظفها داخل ملكة العلامات , أي أنه أسند إليها دلالات مخصوصة .
_ أنساق دلالية اجتماعية وتمتاز بكونها مؤسسية أي قائمة على نوع من المواضع الاجتماعية , لأنها من نتاج عمل الانسان وهي :
_ أنساق دلالية اجتماعية لفظية لغوية تميز بخصوصيتها والتنوع .
_ أنساق دلالية اجتماعية غير لفظية قائمة على أماط متنوعة من الاشياء الصوتية غير اللسانية.

فالعلامة اللسانية (أو اللفظية) ويقصد بها الكلام المنطوق وعلامات الكتابة أو الحروف بأي لغة كانت . وعلامات غير اللسانية (أو غير اللفظية) وهي التي تقوم على أنواع غير الحروف والأصوات , ويمكن تقسيمها على علامات عضوية مرتبطة بجسم الانسان (مثل حركات الجسم وأوضاع الجسد والعلامات الشمية والسمعية والذوقية) وعلامات أداتية تحيل على أشياء خارجة عن العضوية الانسانية (مثل الملابس والموسيقى وإشارات المرور وإشارات الجنود والطقوس الرمزية)⁽¹²⁾ . ومن المؤكد أنَّ لكل من النسق اللفظي والنسق غير اللفظي أهميته التي لا سبيل الى إنكارها.

وعرّف سوسير العلامة بأنها ((اتحاد لا ينفصم بين دال ومدلول , والدال تصور سمعي يتشكل من سلسلة صوتية يتلقاها وتستدعي الى ذهنه تصورا مفهوما هو المدلول)) أي هي وحدة ثنائية المبني فصل طرفيها أحدهما عن الآخر , وتكمن القيمة السيميائية في العلاقة القائمة بين الدال والمدلول .

أنواع العلامات :

يمكن تمييز ثلاثة أنواع

1_ العلامة الايقونية : مثل الصور والرسوم البيانية والخرائط والنماذج والجسمات , وهي التي بينها

وبين ما تدل عليه محاكاة , اي هي خاكي ماتشير أليه . وقد تكون هذه المحاكاة عالية كما في الصور التلفزيونية أو منخفضة كما في اللوحات السريالية والاحلام وبعض مفردات اللغة التي خاكي معانيها كأسماء الاصوات .

٢_ العلامة الاشارية : وهي التي بينها وبين مدلولها تلازم مشهود مثل : دلالة الدخان على النار , ودلالة آثار الحيوانات عليها , وآثار المجرمين .

٣_ العلامة الاصطلاحية (الرمز) : وهي ما اتفق عليه مجموعة من الناس بناء على اصطلاح معين وليس بينها وبين ما تدل عليه أي محاكاة مثل : اشارات المرور , والعلامات الموسيقية والكلمات المفردة في أي لغة .

تصنيف العلامات :

تُصنف العلامات من زوايا عدة مختلفة :

إرادية وغير إرادية , والإرادية قسمان : اتصالية واتصالية جمالية . الأولى مثالها : الاشارات المرورية والعسكرية وأبواق السيارات والاشارات والتوجيهات والارشادات . والثانية نحو : الصور الفنية والتمائيل والمقطوعات الفنية , أما غير الإرادية فمنها : الصوتية كالسعال والحركية لجريان الدم في العروق , والشكلية كحمره الحدود وتغير لون الشعر .

وتقسم كذلك على :

طبيعية : أي تنتجها الطبيعة كأصوات الرعد والحفيف والخزير , وحركات الاشجار والأمواج وأشكال القمر ومر السحاب وتشكيلات النجوم وروائح الزهور والنبات والحشرات وطعم الفواكه وحرارة الأجسام وخشونتها .

صناعية : وهي التي يصنعها الإنسان سواء كانت ذات طبيعة صوتية مثل الأجراس والصفارات أو حركية مثل حركة عقارب الساعة أو شكلية كالاضواء الملونة أو شمعية كالعطور أو ذوقية كالمشروبات والأطعمة أو لمسية كحرارة الاجهزة أو برودتها .

وتصنف العلامة من ناحية البساطة والتركيب كذلك : فالعلامة البسيطة : نحو اشارات المرور واشارات التحية والإيجاب والرفض . والعلامات المركبة : نحو اللغة الإنسانية , لأن فيها أكثر من مستوى واحد بدءا بالصوت فالكلمة فالتركيب^(١٤) .

السيمياء واللغة :

إن وظيفة اللغة التواصلية تعطي لمستعمل اللغة الطبيعية إمكان التواصل وإمكان توظيف العبارات في المقامات المناسبة , ودراسة السيمياء بدراسة أنساق العلامات ذات الوظيفة التواصلية , فالتواصل هو الهدف المقصود من السيمياء وموضوعه في بيان الدلائل القائمة على القصدية التواصلية . فاللغة هي الخط الفاصل بين الطبيعة والثقافة , وهي التي تنفرد بميزة إنسانية وثقافية واجتماعية , فهي واقعة ثقافية بالمفهوم السيميائي للكلمة , وهي _اللغة_ نشاط إنساني الغرض منه في الأساس التواصل وتوظيف الثقافة وتنشيط حركيتها .

إن المجالات المعرفية كلها ذات العمق السيميائي الحقيقي تفرض علينا مواجهة اللغة , ذلك إن الأشياء تحمل دلالات , غير أنه ما كان لها أن تكون أنساقا سيميائية أو أنساق دلالة لولا تدخل اللغة ولولا امتزاجها باللغة , فالاشياء تكتسب صفة النسق السيميائي من اللغة , ولهذا كان من الصعب تصور إمكان وجود مدلولات نسق صور أو أشياء خارج اللغة , فلا وجود لمعنى إلا لما هو

مسمى ، وعالم المدلولات ليس سوى عالم اللغة .
ومن هنا نجد أن كل نسق سيميائي يمتزج باللغة ، ولا يمكن تصور النشاط الثقافي وهو العنصر المحدد للوجود الانساني إلا من خلال زاوية التواصل ، ولم تعد اللغة تشمل الانساق اللفظية المنطوقة أو المكتوبة أو المصورة ، بل أصبحت تشمل كل الوقائع الثقافية المرتبطة بنشاط الانسان وسلوكه ، وعليه فالتواصل بعد أساس للغة والثقافة على حدٍ سواء ، ويشمل التواصل مجموع العمليات التي يتبادل بها المتخاطبون التأثير .

ومن هنا يمكن القول إن السيميائية قد تم تفجيرها لكي تصبح تواصلا ، وإن إنتاج المعنى وتوفير التواصل يمكنه أن يتم بواسطة أنساق لفظية (لسانية) وأنساق غير لفظية (غير لسانية) ويمكننا أن نجتمع بينهما إذ إن العلامات والاشارات والصور والامارات هي علامات بسيطة ، وإن اللغة الانسانية ما هي إلا علامات مركبة لأن فيها أكثر من مستوى واحد بدءاً بالصوت فالكلمة فالتركيب .
واللغة هي أهم منظومة تواصلية ذات فعالية في حقل المعرفة ، وهي المنظومة المثلى ، لأن العلامة فيها متميزة بوضوح تام ، وتتشكل بقدر عالٍ من التنظيم وتحتفظ بعناصر بنيتها الثلاثة (السياقي ، والدلالي ، والتداولي) .

ومع أهمية اللغة للإنسان ، فإنه في أزمة عقلية مع استخدام اللغة لأن فيها وجهين : ظاهر ، وباطن . فنحن نقرر أشياء باللغة ولا نلتزمها بالسلوك ، حيث لا تعني كل كلمة ما يراد بها والمجاملات التي نقوم بها يوميا من أهم مظاهر ذلك السلوك⁽¹⁰⁾ .

ومن مظاهر التعميم نحو قولنا : كل الافلام سيئة ، كل الشباب منحرف ، وهذا غير صحيح . ومنها الحذف : حين نقول مثلا : تعطلت سيارتي . أو فلان حدث له حادث ، ونعرض عن التفاصيل التي نقول متى ، وكيف ، ولماذا ؟ .

ومنها التشويه : نحو قولنا : من الواضح البين أن فلانا صادق ، ولا نقول كيف هو واضح وبين ، وبأي مقياس كان كذلك .

ومن حقول السيميائية : علامات الحيوانات ، وعلامات الشم ، والاتصال باللمس ، ومفاتيح المذاق ، والاتصال البصري ، وأنماط الأصوات ، والتشخيص الطبي ، وأوضاع الجسد ، واللغات الصورية والمكتوبة ، والاعلان والسينما والقصة المصورة والملصقات ، واللوحات التشكيلية .

النص السيميائي :

اللغة الشعرية السيميائية لا تنقل العالم بحرفيته ، بل تسهم في إعادة صياغة الحياة وشكلها ، أي إنها لغة نافرة من المؤلف والعادي ، فالنص السيميائي بحاجة الى التأويل ، وإعادة التأويل .

إن التحليل السيميائي للنصوص الأدبية يقصد به دراسة النص من جوانبه جميعها دراسة سيميائية تغوص في أعماقه وتستكشف مدلولاته المحتملة ، مع محاولة ربط النص بالواقع ، وما يمكن الاستفادة وأخذ العبر منه ، ومن هنا جاء الاهتمام في النص الأدبي بسيميائية العنوان والغلاف والاهداء والاسماء والملاحم الداخلية والخارجية للشخصيات والزمان والمكان والعلاقة بينهما وسيميائية الصور .

السيميائية الادبية تدرس الأدب بعده استعمالا نوعيا للغة ، وعن طريق ذلك تبحث في بنياته الشكلية أو أنساقه الدلالية أو أولياته التأويلية ، وذلك بحسب تنوع المسارات المنهجية لهذه السيميائية ، وهذا الأمر هو ما جعلها شديدة القرب من اللسانيات⁽¹¹⁾ .

التواصل الإنساني :

يملك الإنسان السوي القدرة على نقل أفكاره الى الآخرين , وهذه الملكة تظهر بصور عديدة محصلتها النهائية إيصال فكرة ما من إنسان الى إنسان , فقد تنتقل الفكرة بالإشارة الجسمية على طريقة الخرس , كإشارة الحاجة الى الطعام أو الشرب مثلا , أو بتقاطيع الوجه وأوضاع العينين والنشفتين لإفهام المقابل السرور أو الحزن أو الألم أو الغضب أو الرضا , والإشارات الجسمية تكاد تكون وسائل إفهام عالمية لما ألفه الناس من مدلولاتها على اختلاف مواضعهم , فكانت الألفة بديلا من الاصطلاح اللغوي على معانيها .

ومن ذلك أيضا نقل الفكرة بالخطوط والألوان , فصورة جمجمة تحتها عظامان متقطعان اذا وضعت على زجاجة فيها سائل ما كان ذلك إعلاما بأن السائل فيه خطورة (سام مثلا) , واذا وضعت على لوحة معلقة على سياج حديد , إذن ذلك بخطورة الاقتراب من السياج , وهكذا , وإشارات الطرق وسائل إفهام عالمية أيضا , كثير منها يتم إدراك معناه بسهولة , كالسهم المنحرف باتجاه معين مشيرا الى انحراف الطريق نحو ذلك الاتجاه , إلا أنها في جمهورها تستدعي معرفة ما اصطلح عليه واضعوها , فالمثلث والدائرة مثلا شكلان هندسيان يمكن أن يعبر بأي منهما عن المنع , وبالأخر عن التذكير واختيار المثلث للتذكير والدائرة للمنع اختيار اصطلاحى لا بد من معرفة سابقة به ليتم الإفهام .

وسائل نقل الفكرة بغير الصوت الإنساني , لا نسميها لغة بمصطلح الدرس اللغوي , بل هي إشارات دالة مؤدية الى التواصل أو الفهم , كما نفهم بحممة الفرس كثيرا من حاجاته , وكذلك الكلب والحمار والصبي الرضيع .

ومن وسائل نقل الفكرة مما لا بد فيه من اصطلاح سابق , الأصوات الصادرة من جهاز الصوت الإنساني , واذا كانت إشارات الطرق والإشارات الجسمية وسائل تواصل وإفهام عالمية , فإن ما يعبر عنه الصوت الإنساني من أفكار لا يعدو أن يكون وسيلة موضعية محدودة , ومن هنا اختلفت معاني الأصوات المنظمة عند بني الإنسان باختلاف الاصطلاح على ما تشير إليه تلك الأصوات , واستطاعت كل مجموعة من البشر , أو كل أمة أن تصطلح بطريقة غير مقصودة على نظام صوتي معين يتم به التفاهم فيما بين أفرادها .

فالإنسان إذن قد وهبت له القدرة على نقل أفكاره الى الآخرين , وهذه القدرة يمكن أن تظهر بصور متعددة , منها الأصوات الصادرة من الجهاز الذي زود به خلقه , فالقدرة على نقل الأفكار نطلق عليها ملكة التواصل الفكري , أو هي (التفاكر) , أو في المفهوم السوسيري هي (الكينونة اللغوية) , إذ هذه اللفظة تعني عنده العوامل التي تتضافر لتولد اللغة ((كالجانب الفيزيائي (الطبيعي) , والجانب الفسلجي (الوظيفي) , والجانب السايكولوجي (النفسي)) , وذلك واضح من كلامه , فالمصطلح عنده يعني الصوت اللغوي المعبر عن فكرة , فهي مجموع العوامل الفيزياوية والعضوية والنفسية التي تتضافر لتكون لغة ما انسانية .

أما اللغة فهي جزء جوهري محدد من ((الكينونة اللغوية)) إذ هي جميع صور الكلمات المخزونة في عقول جميع الافراد في مجتمع ما , التي تمّ خزنها عن طريق الاستعمال الفعّال الفردي للكلام , فهي غير كاملة في الفرد , بل يكمل وجودها في المجموع .

أما الكلام فهو الفعل اللغوي الفردي , ولا شك إنه ضرورة لتثبيت أركان اللغة , كما أنه من

الناحية التاريخية يأتي أولاً ((إذ كيف يمكن للمتكلم أن يربط فكرة ما بصورة الكلمة إذا لم يكن قد وجد مثل هذا الربط في أحد أفعال الكلام ؟ كما أننا نتعلم لغتنا بالإصغاء الى غيرنا)) . فاللغة لا تستقر في الدماغ إلا بعد عدد لا يحصى من الخبرات ، وهكذا يكون الأجاز اللغوي الفردي ((الكلام)) المادة التي تكون منها المعجم اللغوي المخزون في العقل الجمعي ، ويبقى التواصل والترافد بينهما قائما ، فالكلام يثري اللغة بما يحدثه الافراد من ألفاظ يكتب لها الحياة بالاستعمال ، واللغة تمد الفرد بالالفاظ المخزونة في عقول مجموع أفراد المجتمع ليستعملها ويبنى عليها^(١٧) .

لقد حصر سوسير هذا العلم في دراسة العلامات ذات البعد الاجتماعي ، ويعني هذا أن السيمياء تبحث في حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية ، أي : لها وظيفة اجتماعية ، ولها أيضا علاقة وطيدة بعلم النفس الاجتماعي (١٨) ، وفي هذا الصدد يقول سوسير: ((اللغة نظام علامات ، يعبر عن أفكار ، ولذا يمكن مقارنتها بالكتابة ، بأبجدية الصم - البكم ، بأشكال اللياقة ، بالإشارات العسكرية ، وبالطقوس الرمزية ، على أن اللغة هي أهم هذه النظم على الإطلاق ، وصار بإمكاننا ، بالتالي ، أن نرتئي علما يعني بدراسة حياة العلامات داخل المجتمع))^(١٩) .

إن السيمياء ترمي الى استكشاف البيات الدلالية التي تتضمنها الخطابات والأنشطة البشرية بنية ودلالة ومقصدية ، والبحث عن الأنظمة التواصلية تفصيلا وتجريدا ووظيفة ، كما تعمد السيمياء الى وضع قواعد مجردة كونية للخطابات الأدبية سطحا وعمقا ، وذلك لفهم الإبداعات الفردية في كل تمظهراتها السطحية على المستويات الصرفية والتركيبية والدلالية والمنطقية ، والبحث عن المولدات الحقيقية لهذا التعدد النصي والخطابي على مستوى السطح .

ويتعامل المنهج السيميائي مع هذه الظواهر بعديها علامات وإشارات ورموز ومخططات ودراسة هذه الإنتاجات الإبداعية والأنشطة الإنسانية خليلا وتأويلا وذلك عن طريق ثلاثة مستويات منهجية في البنية والدلالة والوظيفة . وهي تبحث في أنظمة العلامات اللغوية وغير اللغوية التي تنشأ في حضان المجتمع .

ترمي سيمياء التواصل عبر علاماتها وإماراتها وإشاراتنا الى الإبلاغ والتأثير في الغير عن وعي أو غير وعي ، إذ تستعمل مجموعة من الوسائل اللغوية وغير اللغوية لتنبه الآخر والتأثير فيه عن طريق إرسال رسالة وتبليغها إياه ، ومن هنا فالعلامة تتكون من ثلاثة عناصر : الدال ، والمدلول ، والوظيفة القصدية .

كما أن التواصل نوعان : تواصل إبلاغي لساني لفظي (اللغة) وتواصل إبلاغي غير لساني (علامات المرور مثلا) . فالدليل أداة تواصلية تؤدي وظيفة التبليغ وتحمل قصدا تواصيا ، وهذا القصد التواصلية حاضر في الأنساق اللغوية وغير اللغوية ، فكل خطاب لغوي وغير لغوي يتجاوز الدلالة الى الإبلاغ والقصدية الوظيفية يمكننا إدراجه ضمن سيمياء التواصل^(٢٠) .

السيمياء والتواصل الإنساني :

إن استعمال العلامات هو _ وحده _ الذي يحدد التواصل ، بحيث يمكن الحديث عن القصدية التواصلية وهي حلقة مهمة في سلسلة تطور السيمياء وبيان إمارات التواصل نحو الإمارات العفوية مثل لون السماء الذي يُبنى بالنسبة الى صياد السمك بحالة البحر في اليوم الموالي . والإمارات العفوية المغلوطة مثل اللكنة التي ينتحلها متكلم ما رغبة منه في إيهامنا بأنه أجنبي ، والإمارات القصدية مثل علامات المرور وتدعى هذه الإمارات (علامات) signes .

وترمي سيمياء التواصل عبر علاماتها وإماراتها وإشاراتهما الى الإبلاغ والتأثير في الغير عن وعي أو غير وعي , إذ تستعمل السيمياء مجموعة من الوسائل اللغوية وغير اللغوية لتنبية الآخر والتأثير فيه عن طريق إرسال رسالة وتبليغها إياه . ومن هنا فالعلامة تتكون من ثلاثة عناصر : الدال والمدلول والقصدية , كما أنّ التواصل نوعان : تواصل إبلاغي لساني لفظي (اللغة) , وتواصل إبلاغي غير لساني (علامات المرور مثلا) .

فالدليل عند من يؤمن بالدال والمدلول والقصدية إنه مجرد أداة تواصلية تؤدي وظيفة التبليغ وتحمل قصدا تواصليا , وهذا القصد التواصلية حاضر في الانساق اللغوية وغير اللغوية , كما أنّ الوظيفة الأولية للغة هي التأثير في المخاطب عن طريق ثنائية الأوامر والنواهي , ولكن هذا التأثير قد يكون مقصودا وقد لا يكون مقصودا , ويستخدم في ذلك مجموعة من الإمارات والمعينات العفوية المغلوطة والإمارات القصدية .

إنّ كل خطاب لغوي وغير لغوي يتجاوز الدلالة الى الإبلاغ والقصدية الوظيفية يمكننا إدراجه ضمن سيمياء التواصل وذلك عندما يستعمل الاستاذ داخل قسمه مجموعة من الإشارات اللفظية وغير اللفظية الموجهة الى التلميذ ليؤنبه أو يعاتبه على سلوكياته الطائشة فإنّ الغرض منها هو التواصل والتبليغ .

إنّ السيمياء بعدها علما للأنظمة اللغوية وغير اللغوية قسمان : سيمياء ترمي الى الإبلاغ والتواصل عن طريق ربط الدليل بالمدلول والوظيفة القصدية , وسيمياء الدلالة التي تربط الدليل بالمدلول أو المعنى فهي ثنائية العناصر (ترتكز العلامة على دليل ومدلول) وسيمياء التواصل ثلاثية العناصر (تتبنى العلامة على دليل ومدلول ووظيفة قصدية) .

وإذا كانت سيمياء الدلالة (النصية) تبحث عن الدلالة والمعنى داخل (النص الفني) فإنّ سيمياء الثقافة تبحث عن المقصديات والوظائف المباشرة وغير المباشرة , وهذا يعني عندما تُدرس الموضة مثلا , يطبق عليها المقاربة اللسانية تفكيكا وتركيبا عن طريق استقراء معاني الموضة ودلالات الأزياء وتعيبين وحداتها الدالة ومقصدياتها الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والثقافية , فإنّ أزياء الموضة وحدات دالة يمكن أثناء دراسة الألوان والأشكال لسانيا أن نبحت عن دلالاتها الاجتماعية والطبقية والنفسية , والشئ نفسه في قراءة الطبخ والصور الفوتوغرافية واللوحات البصرية . كما يمكن أثناء خليلنا للنصوص الشعرية عن دلالات الرموز والاساطير ومعاني البحور الشعرية الموظفة ودلالات تشغيل معجم التصوف أو الطبيعة أو أي معجم آخر .

فالإنسان هو أكثر الكائنات استعمالا للعلامات وكون العلامة الانسانية (الكتابة , والفن , والكلام... الخ) هي الأكثر تركيبا وتعقيدا ⁽¹⁾.

التواصل السيميائي :

يتفق السيميائيون على أنّ العلامة تتشكل من وحدة ثلاثية , وهي : الدال والمدلول والقصد. وهم يركزون كثيرا في أعمالهم على الوظيفة التواصلية . ولا تختص هذه الوظيفة التواصلية بالرسالة اللسانية المنطوقة فحسب , بل توجد في أنظمة غير لسانية أيضا كالرموز والشعارات والاعلانات والخرائط والنصوص المكتوبة , وكل البيانات المنتجة لهدف التواصل , وتشكل هذه الأنماط علامات ومضامينها رسائل أو مرسلات , وهؤلاء السيميائيون مهتمون بدراسة أنساق العلامات ذات الوظيفة التواصلية القصدية اللغوية منها وغير اللغوية على حدٍ سواء .

إن اللغة المنطوقة لها مستوى لغوي هو عبارة عن نظام من العلامات الدالة والتي هي نسق من الوحدات نسميها وحدات الخطاب والتواصل , وإن دارس اللغة أداة للتواصل عليه أن يستند الى علوم لسانية تبين شكل التواصل , إذ إن المرسل والمستقبل يمتلكان نسق القواعد الكلامية نفسه , وهذا هو الشكل الأكثر انتشارا واستعمالا ووظيفة بين الأفراد , وهو ما عبّر عنه ابن جني بأن اللغة التواصلية هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم .

وكما توظف اللغة بأساقها هدفا للتواصل والتفاهم , توظف العلامات غير اللغوية في استعمال الاشارات والحركات والإيماءات التي تندرج فيما نسميه بالتواصل غير اللفظي للدلالة على الحركات والهيئات وتوجهات الجسم , وعلى خصوصيات جسدية طبيعية واصطناعية وعلى كيفية تنظيم الاشياء من أجل الوصول الى التبليغ والإفهام , فإن الذي تصمت شفاته يتكلم بأطراف أصابعه أو بحركاته وملامحه الدالة على مضامينها في تحديد المؤشرات الدالة على الانفعالات والعلاقات الوجدانية بين المرسل والمتلقي .

وهناك مجموعة من الآليات والمفاهيم التي يعتمد عليها في تحليل أنظمة التواصل , وبيان مستويات الخطاب في الوقوف على العلامة وهي في اللغة العلاقة بين الدال-الصورة الصوتية- والمدلول - وهي المفهوم الذهني - , فكل خطاب منطوق أو مكتوب هو نسق من العلامات اللغوية . والعلاقة غير اللغوية أي - غير المنطوقة - نحو علامات المرور والرموز المرئية والملصقات والصور والخرائط والمؤشرات كالدخان الدال على النار اذا لم تكن مرئية , وعلامات الوجه المبينة للفرح أو الحزن أو الغضب , ونحو الرمز الذي يشير الى السلام بالحمامة والى العدالة بالميزان . وقد توسع مفهوم التواصل غير اللغوي - السمعي والصوتي - المتعدد القنوات من خلال أعمال وتأملات علماء العادات وعلماء الانساق والاجتماع وعلماء النفس والاطباء في تمكين العلاقات الانسانية واستخلاص ميزاتهم الثقافية والحضارية وتبيان مقوماتهم السلوكية والحركية في التعامل مع الاشياء والمواقف معززة بالتفاعلات اللفظية التي تزيل كل إبهام وتشويش عن كل إرسالية غير لفظية في مجال التواصل والتفاهم .

إن المقاربة الوظيفية لدور هذه الرموز غير الكلامية في التفاعل الاجتماعي مهمة في أية دراسة للتواصل الانساني , واذا كان الكلام يشكل النشاط المركزي لنمط التفاعل الانساني الذي نسميه عادة بالتحدث , فإن الأهمية تكمن في اعتبار هذا التحدث ورؤيته كظاهرة للاتصال المتعدد القنوات والذي يشتمل على علاقة متبينة للرموز كلامية كانت أم غير كلامية , ومن ثم إلقاء وظائف الأشكال بواسطة أشكال تخاطبية ليست بالضرورة كلامية حُل أحيانا محل التواصل الكلامي وتصاحبه في الغالب - أيضا - في فهم التحفيزات والتفاعلات الانسانية .

إن حضور التواصل غير اللفظي يتجلى بشكل واضح في المسرح والرقص والموضة والرسم والنقش والنحت المثيرة للإنتباه والتواصل الاجتماعي .

الانساق الدلالية الاجتماعية تتميز بكونها تنظيمات اجتماعية متصلة بروابط القرابة والطقوس والاعراف والعادات والنظم القضائية والديانات , وهي من نتاج الانساق , وتتفرع الى أنساق لفظية وغير لفظية , واللفظية تقوم على التمايزات التي يحدثها الانسان في مادة الصوت , وغير اللفظية تقوم على الاشياء الموجودة في الطبيعة والاشياء التي أنتجها الانسان واستعملت باعتبارها دلائل ولها وظيفة تواصلية نحو حركة الأجسام وأوضاع الجسد في التواصل اللمسي

والشمي والذوقي والبصري والسمعي وعلى الأشياء الدالة من ثياب وحلي وزخارف وأدوات مختلفة وآلات وموسيقى وفنون رمزية تواصلية تبدو في الظاهر أكثر طبيعية وعفوية وصولاً إلى التواصل الثقافي الانساني (٢٤) .

الخاتمة :

اتسعت مباحث السيميائية وشملت معظم جوانب الحياة , واتسمت مسيرتها بالتطور المتنامي المتسارع , لأنها شكلت الأداة والمنهجية في تفسير سلوك العلامات وبيان وظائف علاقاتها , وهذه العلاقات تتسم بقدرتها على التوالد والاستمرار والضرورة .

بدأت السيميائية من تحليل العلامة فقدمت تفسيراً للموجودات , وفهماً لحركة العالم , وشرحاً للنظام الكوني , وصيغاً تتخذ من سلطان العلامة إطاراً للإبداع عبر مسيرة التسلسل المعرفي الذي يقابل التأمل بالتحليل والنسق بالتأويل .

إن التحليل السيميائي عبارة عن بيان شبكة من العلاقات تستهدف دراسة أوجه النشاطات والفعاليات الانسانية في مظاهرها الدالة , ودلالاتها الممكنة وتستهدف معرفة كيفية عمل الأنظمة الدلالية (اللسانية وغير اللسانية) وصار التحليل السيميائي تصوراً نظرياً ومنهجياً تطبيقياً في شتى المعارف والدراسات الانسانية والفكرية والعلمية , وأداة في مقارنة الأنساق اللغوية وغير اللغوية في الشعر والرواية والأسطورة والمسرح والسينما والتشكيل الفني والثقافة والأطعمة والأشربة والموسيقى والتصوير والعمارة وآداب السلوك والمعتقدات والعلامات المصاحبة لما هو لساني كأنماط الأصوات في ارتباطها مع الجنس والسن والحالة الصحية والعلامات المصاحبة للغة نحو الكيفيات الصوتية في علو الصوت ومراقبة العملية النطقية ونحو الأمزجة الصوتية كالضحك والبكاء والتنهدات , وحركات الاجسام والاشارات الدالة عليها , والحواس الانسانية وجميع الأنساق التواصلية . المنصلة بنظام التواصل في فهمه وتفسيره وبيان طرائق الإرسال والتلقي , ورصد الوسائل والمدخلات التي يرتكن إليها التواصل الثقافي .

الهوامش :

- ١- لسان العرب , مادة (سوم) .
- ٢- وردت في الآية ٤٦ , و ٤٨ من سورة الأعراف , وفي سورة محمد الآية ٣٠ .
- ٣- السيميائيات والتأويل , سعيد بنكراد , المركز الثقافي العربي , ط ١ , ٢٠٠٥ , ص ١١٠ وما بعدها .
- ٤- المصطلح النقدي , د . عبد السلام المسدي مؤسسه عبد الكريم بن عبد الله , تونس , ط ١ , ١٩٩٤ م , محور جريد المماثلة .
- ٥- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم , محمد علي التهانوي , تحقيق د. علي دحروج , ترجمة عبد الله الخالوي , مكتبة لبنان ناشرون - بيروت , ط ١ , ١٩٨٦ م , ٧٨٨/١-٧٨٩ .
- ٦- البيان والتبيين , ابو عمر الجاحظ , تحقيق عبد السلام محمد هارون , مكتبة الخانجي , ط ٣ , ١٩٦١ , ٧٥-٧٦ .
- ٧- المصدر السابق : ٨١/١ .
- ٨- العقد الفريد , ابن عبد ربه الاندلسي تحقيق أحمد امين واخرون , دار الكتاب العربي , بيروت , ١٩٦٤ , ٣١٧/١ .

- ٩- مفردات غريب القرآن , الراغب الاصفهاني , تحقيق محمد سيد كيلاني , دار المعرفة - بيروت , ص ٤٥٠ .
- ١٠- مقدمة ابن خلدون , دار نهضة مصر, ط ٣ , ١٩٧٩م , ٥٥٦/١ .
- ١١- علم الدلالة عند العرب - دراسة مقارنة مع السيميائية الحديثة, عادل فاخوري , دار الطليعة - بيروت , ط ٢ ١٩٩٤م , ٧٠ .
- ١٢- السيميائيات وتحليلها لظاهرة الترداف في اللغة والتفسير , د. محمد أقبال عروي , مجلة عالم الفكر - الكويت , مج ٢٤ , العدد ٣, لسنة ١٩٩٦م, ص ١٩١ .
- ١٣- معرفة الآخر -مدخل الى المناهج النقدية الحديثة ,عواد علي, المركز الثقافي العربي , ط ١ . ١٩٩٠ ص ٨٤ .
- ١٤- السيميائية , بيير غيرو , ترجمة أنطوان ابي زيد , منشورات عويدات , بيروت- لبنان , ١٩٨٤م , ص ١١ وما بعدها .
- ١٥- النظرية النقدية التواصلية , مصدق حسن , المركز الثقافي العربي , الدار البيضاء - المغرب , ط ١ , ٢٠٠٥م , ص ٧٩ .
- ١٦- السيميائيات والتأويل , مصدر سابق , ص ١٦٩ .
- ١٧- مدخل الى المناهج النقدية الحديثة , مصدر سابق , ص ٩٦ .
- ١٨- محاضرات في السيميولوجيا , د. محمد السرغيني , دار الثقافة - البيضاء , ط ١ , ١٩٨٧م, ص ٦٨ و ٥٥-٦٦ .
- ١٩- السيميائيات أو نظرية العلامات , جيرار دولودال , ترجمة د. عبد الرحمن بو علي . مطبعة النجاح الجديدة- البيضاء , ط ١ , ٢٠٠٠م , ص ٢١ .
- ٢٠- علم اللغة العام , دي سوسير , فردينان , ترجمة د. يوثيل يوسف عزيز , مراجعة د. مالك يوسف المطلبي , دار آفاق عربية , د. ت , ص ٣٨ وما بعدها .
- ٢١- حدود التواصل (الاجماع والتنازع بين هابرماس وليوتار) , فرانك , مانفرد , ترجمة عز العرب لحكيم بناني , افريقيا الشرق , المغرب , ٢٠٠٣م , ص ٣٨ .
- ٢٢- السيميائية , غيرو , بيار , مصدر سابق , ص ١٠-١٢ .